لغة خطاب هامش النص بمنطقة الساورة البناء والدلالة في شعر الشيخ أحمد بن موسى الساوري

The language of the text Margin discourse in the region of Saoura The Structure and semantics in the poetry of El Cheikh Ahmed ben Moussa saouri

مولاي مخطار– اشراف : **د. خثير عيسى**
المركز الجامعي بلحاج بوشعيب – عين تموشنت
مخبر الخطاب التواصلي الجزائري الحديث
mokhtar.moulay@yahoo.com

تاريخ الإرسال:2018/09/13	تاريخ القبول: 2019/01/07	تاريخ النشر: 2019/05/15

ملخص البحث

يحاول الخطاب الصوفي دائما خلق تواصل معرفي وتربوي يضبطه الواقع الذي أنتجه التفاعل الحتمي بين مجموعة من العوامل، والتي خلقها كذلك فكر وثقافة معينة تتعدد فيها مستويات التلقي وبما أن لكل منطقة خصوصية فقد وجد الشيخ أحمد بن موسى الساوري المدخل الرئيس في ربط جميع مستويات التلقي في خطاب شعري أشبه ما يكون بالخطاب الشفاف، والذي اخترق به قلوب العامة والخاصة، ووضع عليه بصمته بلغة بسيطة معقولة النسج تحوي داخلها رموز لها دلالات عرفانية وتربوية .

وهذا ما يجعل الخطاب الصوفي له نظام لغوي مستقل بنفسه لا يفصح عن مكنونه إلا بملامسة بعده العرفاني بشقيه العلمي والتربوي، وهذه الدراسة تحاول رصد قدر الإمكان إشكالية فعل التواصل واكتشاف البنية الثقافية ودلالتها التي صبغت هذا الخطاب الصوفي في منطقة الساورة .

الكلمات المفتاحية : ساورة؛ هامش؛ دلالة؛ تصوف؛ خطاب .

Abstract

The Sufism discourse always tries to create an eductional and cognitive communication which is adjusted (trued) by the reality of the interaction between different factors created by a such thought which contains different levels of obtaining.

Even each religion has its own particularity El Sheikh Ahmed ben moussa Saouri creates the principal entrance (access) to connect those levels in a simple poetical discourse ; which affects both common and intellectual

people. He puts his own imprint with a simple and easy language containing a cognitive and educational semantic symbols that makes the sufi discourse an independent linguistical system. This discourse doesn't express it's self only while touching it's educational and scientific dimenssion. This study deals with the problematic of connection and the discovery of the symbol and it's semantic which makes the sufi discourse distinctive in the region of Saoura .
Key words : Saoura؛ Structure؛ Semantic؛ Sufism؛ Discourse

تمهيد

يتجدد الاصطلاح الديني في كل عصر وجيل في هذه الأمة الإسلامية متمثلا ومتجسدا في رمـوز لهـا الفعـالية القصوى في اختراق منظومة صلبة ومتراكمة من العادات والتقاليد، حيث أصبحت كلما طال العهد بها تنخر المحيط الإنساني من جميع مستوياته، فيضل هـذا النظام العـام صنما معبودا من دون الله، ويتّخذ مشخصا غير مفهوم ولا معلوم بل هو ظـاهر في وهم الإنسان، له سلطة مطلقة في تقيد الحرية التي انفطر عليها هذا المكلف من بين جميع المخلوقات والتي جُبل عليها كـل مولود في هذا الوجود المدرك، وليس بالضرورة له تشخيص في الظاهر قال الله سبحانه وتعالى ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[1] فينطبع مع كل مخلوق هذا الفعل مع مرور الأعوام لقدر الله في خلقه وقضاءه في أمره ونهييه حتى تستأنس به النفس لتصبح جزءا من العقيدة المتعبد بها عند العام والخـاص، وكلٌّ له مصلحةٌ من قريب أو بعيد في ثبات هذا النظام واستمراره، قال الله تعالى وهو يصف حال الأمم السابقة وهي تتلقي نداء الأنبياء رافضة لهذا الخطاب المفاجئ ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾[2].

وبذلك يكون الإصلاح الديني والفكري وتجديد الخطاب أخص من الدعوة المطلقة التي يعمل على إنعاشها مجموعة من المؤسسات بمختلف أطيافها وتوجهاتها العقائدية، ولكن بلا رؤية مستقبلية لمصير الأمة الإسلامية ودورها الحضاري في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس في إعـادة تنقية المعتقد السائد وإعـادته إلى مشربه الأول يوم أن أكمل الله هذا الدين وأتم نعمته على عباده المؤمنين فجاء نقيا وصافيا من كل براثن الشرك والكفر

ومتجسدا في سيرة وخلق النبي الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام سيد البشر .

ولأن اللّغة لهـا سلطتها الخـاصة، ودورها الكبير والفعّال في اختراق القلـوب مهما كـان تصلبه ومنعته من كل غريب فقد أدرك الشيخ أحمد بن موسى ذلك من خلال التصوف ونظرته كمربي للحياة « فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك يتخذهما الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية »[3]وهي آلية فعّالة في ضبط الفهم وإعادة بناء الفكر العام وما هو سـائد آنذاك في المجتمع الذي يحيا فيه ليكون أقرب إلى الاستجابة ومنسجما مع الذوق العـام في تعاطيه مـع الحياة بلغة شعبية ملحـونة تكون لها رابطة في بنيتها عند المتلقي حيث يسهل تمرير الرسائل دون رفض مسبق أو باب مغلق « فاللغة بأهلها لا بنفسها فإنا نجد مستعملي اللغة لا يتخذون جميعهم الموقف المحايد نفسه الذي تتخذه اللغة إزائهم إذ تجتهد كل فئة أو مجموعة داخل المجتمع الواحد نفسه لاستعمال اللغة في مصالحها الخاصة »[4] وهذا الواقع كان ضرورة للشيخ بأن يحاكي المجتمع من وخلال ما يدركونه داخل النسق العام للغة.

وقد كـان الشيخ عالما وموسوعة متبحرا في فنون شتى، وشخصية صوفية متألهة ومتدفقة المشـاعر ومربيا فذّا مطّلعا على النفس البشرية وخبيرا بعللها وأدويتها، وشـاعرا متمكنا ينظم قصـائده وفق الظـروف الثقافية والاجتماعية والدينية ومستجيبا لـسذاجة التفكير العـام وبسـاطة التلقي لمقتضى الحـال، فاللغة وسيلة مهمة في زرع المعتقد الـصحيح في قـلوب الناس وترسيخ تعاليم الشريعة والطريقة في النفوس حتى يسهل فهمها وضبط حدود ما أحل الله لعباده وما حرمه عليهم فـ« لسان الجماعة يشكل نموذج العرف أما كلام الأفراد فيشخص مثال السلوك »[5] نتيجة لخبرة الحياة، ويبقى لهذا الفعل دور متسلسل من كلام فرد إلى لسان الجماعة، أي يتحول هذا المنتج بعد تمحيص وتدافع في الأفكار داخل المجتمع بين مصدق يحاول أن يتلبس أخلاقه إلى لسان الجماع التي تنشأ سلطة روحية وتتبنى مقاصده ثم تقحمه في منظومتها الاجتماعية إقحاما ليصبح بعد ذلك مقدسا يحرم نقده.

وفي هـذا البحث نحـاول فيه أن نتناول بعض العناصر البنيوية التي أسهمت في التشكيل النصي لـدى الشيخ أحمد بن موسى والتي وظفـها في التربية والتعليم، وهي تعـد كـذلك هـامشا للنص القرآني الـذي هو المصدر الأول في التشريع والمطلق في تخطيه عتبة الزمان والمكان، ليكون كـتاب هدى ونور وشفاء لما في الصدور، لـكن تبقى الثقافة السـائدة في كل مجتمع هي السلطة النافذة

التي تشرّع وتوجه الفكر العام من غير بسط في إدراك ماهية هذا العنصر الفعّال والشيخ يحاور هذا الوضع « فيؤسس لغة مثالية قائمة على نحو لأفكار.. التي تفرضها سلطة المرجع الثقافي منتجة مدلولات جديدة في عالم نصي خاص »[6]، فالشّعر الملحون وسيلة شفويّة وظّفها الشيخ لتنقل تجربته الحسّية والروحية وهو ما نجده عند المتصوّفة بصفة عامة كأدوات دعوية وتربوية تساهم بشكل كبير في مقاربة الفهم والتفاعل مع حقائق عرفانية لها الأثر البالغ في سلوك الفرد من خلال رؤيتهم للعالم ولأوامر الله عز وجل .

ولأن الإيقاع له خصوصية وأهمية خاصة في تشكيل الخطاب الشعري « وما الشعر إلا تسليط نظام إيقاعي على نظام لغوي » [7] فقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه كان يستعمل الشّعر وما يحمله من خصوصية النّغم والقافية ليُثبّت بذلك الفهم عند أفراد من الناس لهم ثقافة معينة في التلقي واستقبال الرسائل « قال أبو الحسن المدائني عن أبي وجزة قال :

قال عمر لأعرابي وهو يعلمه الصلاة :

إن الصلاة أربع وأربع ثم ثلاث بعدهن أربع

ثم صلاة الصبح لا تضيّعُ »[8]

ولخصوصية ذلك النسق الثقافي الذي كان سائدا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم استطاع عمر بن الخطاب أن يمرر الرسالة بكل سهولة، ومن خلال هذا الوعي لخصوصية الفرد كان أثر الشيخ أحمد بن موسى في التربية والتعليم .

هامش النص القرآني.

يعد هامش النص من أهم العتبات الموازية لدلالة النص والمحيطة به، إذ يعتبر نصا مقابلا يحتوي على الكثير من الإشارات والدلالات التي تحاول خلق جسر لاقتراب إلى دلالة النص وقد عرف "جيرار جينيت" الهامش بأنه « ملفوظ متغير الطول مرتبط بجزء منته تقريبا من النص إما أن يأتي مقابلا له وإما أن يأتي في المرجع » [9]، حيث لا ينفصل هذا الهامش عن النص الأصلي بل يكون متواصلا معه بإحالة هي المرجع دائما للنص الذي يحاول أن يوازي بين ما هو غامض مستتر وما هو جلي ظاهر وخارج النص فيأتلفان معا ليشكلا نصا مزدوجا.

وبهذا يعد الهامش ميلاد نص جديد موازٍ للنص الأصلي، فهو سهل المسلك قريب التواصل إلى الفهم العام الذي نتج فيه الهامش، إذ بعد فترة يتحول الهامش من نص موازي

إلـى نص أصلي للهامش الثاني فيصبح هناك هـامش الهـامش للنص حيث يوازي المعنى العام ويتفاعل مع الدلالة المركزية.

ويعتمد الهامش دائما خطـابا يحمل دلالة تجعل القارئ والمتلقي يستحضر النص بإعادة نسجه لتعميق الدلالة، ومـن هنا يكون هامش النص لـه دور رئيس في إنتاج الدلالة من خلال تعـالقه مع النص فالهامش يعد « نظاما معرفيا لا يقل أهمية عن المتن الـذي يحفّزه أو يحيط به بـل يؤدّي دورا مـهما في نـوعية القراءة وتوجيهها »[10] وأحيانا يتعدّاه ليكشف عن حقـائق جـديدة ويعـري النص عن مبهـم سطحي فتتولد معرفة جديد لا تقل أهمية عـن الأصل، كما أنه يُسقط الأصـل ليخلق لنفسه مـركزية جديدة فيصبح قناة تثبت وتنفي كل ما هو سابق إذا خالف حقيقة كانت آنية الجزم بصحتها وانسجامها مع ميلاد النص الأصل .

وتقسم الهوامش إلى ثلاثة أنواع :

أصـلية : ووظيفتها تفسيرية تحـاول أن تفك الـرموز والمصطلحات وتكشف المعجم والمبهـم في النص.

لاحقة: ووظيفتها التعليق على النص ومحاول الوصول إلى فهمه والتماس دلالته.

المتأخرة : وتكون وظيفتها إخبارية بأن تُقدّم معلومات حول النص.[11]

ولهـذا تُعدّ الهوامش « من أهم عناصر المناص لأنّها تُظهر لنا بجلاء تلك المنطقة المترددة التي يقع فيها المـناص لأنها تقع بين الداخل والخارج " النص "، فكـل هذه الحواشي والهـوامش هي خارج النص الأصـلي، ولكن تعمل عـلى تعضيده بالتعليق شـرحا وتفسيرا، أي في داخـل النص »[12] وتحاول أن تكون الوسيط بين النص والقارئ الـذي عجز عـن التواصل مع النص الأصلي كـونه اتخذ ستارا يحجب عن المعـاني الجُـوّانية ولا يبوح بأسـراره إلا بحضور هذا المفارق الملاصق فيتعدد النص وجـودا لمعنى واحد .

وفي الأعمال الخطابية نجـد فيها بعض الحـواشي توضيحات وتفسيرات لـبعض المفردات الواردة داخل النصوص القرآنية التي تقوم بصنع دلالة وذلك بإعطاء المتلقي أو القارئ للنص فسـحة تخيّل واسـعة في إيجـاد دلالة بعض المفردات الـواردة في النصوص والمخصصة للهـامش مثال قـوله الله سبحانه وتعالى ﴿ وأصْحابَ الرَسِّ ﴾[13]. فالنص لم يوضِّح لنا اسم وحقيقة هؤلاء القوم بل كنّاهم لكن الهامش عن طريق الروايات بيّن أن المقصود هم قوم شعيب، والرسّ هو اسم بئر ماء يوجد

بمنطقتهم .

فالهامش هو كل ما يحيط بالنص ويحاول تبين ما هو مضمر، وتفصيل ما هو مجمل وتقريب المعنى للمتلقي، ولذا يعد صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو أقرب هامش مواز لنص القرآن الكريم فقد كانت حياته كلها ترجمة لكلام الله عز وجلّ، سئلت عائشة رضي الله عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت رضي الله عنها « كان خُلقه القرآن »[14]، فسيرة النبي عليه الصلاة والسلام هي هامش للنص الأصلي، وكلامه وسيرته نص مواز للنص الأصلي الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو كلام الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[15]. بل نجد الكثير من العلماء والأصوليين والفقهاء من جعل السنة وحيا ثانيا، بل ناسخا للنص الأصلي كما هو الحال في رجم المحصن يحدث « الشعبي عن علي رضي الله عنه حين رجم المرأة يوم الجمعة وقال قد رجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم »[16]، وهنا يحدث التحول الذي فرضه طول الزمن من هاش للنص إلى نص أصلي وناسخ له .

وفعل الصحابي هامش للنص الأصلي فهم تلاميذ النبي عليه الصلاة والسلام وأفصح من قرأ القرآن وعاش معه مدة نزوله وتفاعل مع آياته وأوامره ونواهيه، وهامش للنص الموازي كذلك، من كلام وفعل وتقرير النبي عليه الصلاة والسلام، كما أن تفسير عليه الصلاة والسلام للقرآن الكريم كان قليل إلا جزء قليل، فحياته عليه الصلاة والسلام كانت كلها قرآن حتى أصبح فعل الصحابي حجّة كما فعل عمر بن الخطاب بإبطال الحدود مثلا عام الرمادة.

لكن يبقى النص الديني له خصوصيته والقرآن الكريم خاصة كونه معجزة خالدة تتجدد فيه المعاني وتنكشف حقائقه في كل مرة ومع كل عصر وثقافته، ومع كل مستوى معرفي وتفكير متجدد وهنا تكمن خصوصيته مما يجعله مفتوحا على جميع الاحتمالات والدلالات فهو حمال ذو وجوه ميسر للذكر يجد فيه كل أحد ضالته، القاسي والداني كل حسب مستواه المعرفي وعلى حسب مشربه وخلفيته الفكرية والعقائدية.

الخطاب الصوفي التربوي:

ارتبط التصوف بالتربية وحمل لواء هذا الفن جمع من الربانين جمعوا بين الشريعة والحقيقة و ارتبط بعدة مجالات معرفية وجمالية وأخلاقية حكتها نصوص كثيرة من الفلسفة والأدب وعلم الكلام وغيرها من منابر العلم والمعرفة فقد ارتبط هذا الخطاب بتجربة المتصوف الذي زاوج

بين العلم والعمل وجعل لسلوكه مقامات يصل إليها بعد كل تجربة يغلب عليه الحال من الأخلاق السنية التي تقربه إلى الله عز وجل فيكون وهب بعد كسب ومنزل بعد سفر إلى الحضرة الإلهية [17]، فهو يحاول في كل محطة الانسلاخ من كل خلق ذميم يمنعه من الاقتراب ويتحلى بالأخلاق السنية التي تنور بصيرته، فكلّما تأدّب اقترب.

وهو مع هذا السلوك يرقّ له حجاب الغفلة شيئا فشيئا وتنكشف له المعاني وتظهر له الحقائق التي ما كان ليشاهدها لو لم يصقل مرآة قلبه، فبقدر القرب تكون المشاهدة ومقام الأنبياء أعلى بالعناية الربانية، ومدد النبي عليه الصلاة والسلام الذي خط لصحابته سبيل الرّشاد حتمي ولازم لكل سالك « فالكشف الحاصل كشف شخصي، ذاتي قد يكون معمى، وغير مفسر حتى بالنسبة لمن وقع له »[18]، لكنه لا يتخطى به حدود الشريعة لأنه ليس نبيا معصوما وقد يلتبس عليه الحق من الباطل والشيطان لفعله خبير فدائما العارف والسالك هو بين شاهدين عدليين الكتاب والسنة الصحيحة .

فالخطاب الصوفي هو ذلك الخطاب الناتج عن التجربة النفسية والروحية للسالك كونه ألقي بظلاله على النسق العام فأنتج لنا « المتصوفة نصوصا حصلت تحصيلا كافيا صيغها الصرفية وقواعدها النحوية وأوجه دلالات ألفاظها، وأساليبها في التعبير والتبليغ » [19] ، وكلها تعد من الأشكال التعبيرية وهدفها الأول والأسمى البحث عن الكمال الإنساني والرقي إلى الحضرة الإلهية من خلال التزكية وإتباع السنة النبوية والتي مثلها النبي عليه الصلاة والسلام في حياته فاتصف بمكارم الأخلاق فكان خلقه القرآن وجاء مدحه من عند الله فقال عز وجل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[20].

البناء والدلالة في شعر أحمد بن موسى

جمع تلاميذ الشيخ جميع الأبيات والمقطوعات الملحونة التي كان يلقيها في مجالس الوعظ والإرشاد وكلها كانت أحكاما وحكما تخص تجربة الشيخ في التربية والتعليم، وكلامه في السلوك والمقامات ومحبة الله ورسوله وأخبار الصالحين وفضلهم وعلمهم، فكانت حكمه على شكل أبيات لكي يسهل حفظها وتدارسها بين المريدين، وكل هذه الحكم مشربها واحد هو كتاب الله، وقد ذُكر من أخباره أنه نسج لكل آية رمزا، وبذلك تكون هذه الحكم هامشا للنص الذي تحوّل إلى خطاب أنتجته طبيعة المجتمع وثقافته فجاءت على شكل رموز لها مقصدية عند الشيخ في التربية

والتعليم.

أ – الذكر

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [21].

ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحث المؤمنين على الـذكر وعلى أي صيغة كانت ليكون حبل المؤمن بالله موصول قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[22] ومـلازمة الذكر لـه خصوصية عند المتصوفة لأنه يعد الطـاقة المستمرة والمتجددة في كـل حين ولا يستغني عنها المؤمن مهما كـان حـاله أو كـان عند الله مقـامه، وهو مـا سار به العمل في حياته ونصيحته لمريده يقول الشيخ :

الذكر يا زاهد الذكر والذكر هو الجبيرة
من لالو نور فالذكر هذاك خاطي لمريرة [23]

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسـان وشرفه بأن نفخ فيه من روحه ثم رده إلى أسفـل السـافلين مكسورا عليلا ولا يذكر حقيقة حاله إلا من بصره الله سبحانه وتعالى بعيوبه، ولكي يستقيم حاله ويطيب كـسره لابد له من جبيرة كـما وصفها الشيخ حين رمـز للذكر بالجبيرة التي يضعها المـريض عـلى الكسر لكي يطيب بوضعية خـاصة وتعـاليم مضبوطة، وكـذلك الذكر هو بتلك المثابة من النـور التي ينتعش فيها الـمؤمن قـال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [24]وفي ذلك يقول الشيخ :

هيا الغافل ذكر الله يحي لقلوب اللي ماتوا
فني وقول الله الله وجني جنانك في ذاتوا [25]

فذكر الله نور ومن ابتغى غير ذلك فلن يصـل كـمن اتخذ لنفسه طريقا غير سبيل الله وقد رمز لها الشيخ بالمـريرة وهي دلالة على الطريق الذي سلكه من قبله فأصبحت معروفة لكثرة المرور عليها .

ب – المحبة

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[26].

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى حقيقة العبادة والتي تتمثل في الإتباع كمرحلة إلى الانقياد ثم تصبح الصفة الغالبة وهي محبة الله عز وجل ولا تنافي مع محبة ما جبل عليه الإنسان من المخلوقات قـال

الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[27]، وأشد فعل تفضيل لكن الأولى هو المحبة الدائمة والأجلّ، لأن ثمرتها تقطف في الدنيا والآخرة، وهي محبة شكر ووصال وطلب مغفرة من الذنوب ورحمة الله لعباده وفي ذلك يقول الشيخ :

لولا محبتك مانكونش معروف لولا محبتك مايسولوا فيا
لولا محبتك مانكونش بين الصفوف نجهز بلغاك والناس دايره بيا
وإذا بغيتني واش حد يكرهني وإذا رميتني كلها يقول رميه [28]

فلولا لطف الله سبحانه بعباده ما عرف العبد ربه واهتدى إلى طريق الرشاد قال تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[29]ولذلك مقام المحبة فيه امتحان للعبد لكي يصدق حاله، ولا يبلغ هذا المقام حقيقة إلا من فني في المشاهدة ولم يستقر حاله شوقا إلى الله عز وجل يقول الشيخ :

نار المحبة تهجهج دخانها فوق راسي
الشيب فالراس عجج والكذب شر المعاصي
نار المحبة تهجهج وصهدها فوق راسي
عزري وأنا مزوج غريب في وسط ناسي
أنا اللي بالحب مشموط وأنا اللي ندور المزاية [30]

فالشوق إلى الله قد بلغ حد الألم الذي لا يستطيع فيه المحب الصبر فهو نار قد علا دخانها وان كان الذي به مجرد وهم أو ادعاء فالكذب معصية كبيرة ولا يكون المؤمن كذاب، لأنّ الحب هو علامة على الصدق ولا يبلغ أحد هذا المقام حتى يكتب عند الله صدّيقا، ويختلف حال من شخص إلى آخر وإن كان الوصف واحد وفي ذلك يقول الشيخ :

الحب اللي يسال عنو باقي مثل الندى في النزول
على الزهيد بان عون يحي القلوب في النزول [31]

فشرط نزول الحب في قلوب عباده أن يكون قد تخلى من الأغيار التي تمنع استقراره فلا يجتمع في قلب واحد نقيضان فإما ظلمة فهي منزل للشهوات ووساوس الشيطان أو نور وهي منزل رحمات وتحديث من ملائكة الرحمن.

ج – الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[32] .

كان اهتمام المتصوفة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كبيرا جدا لدرجة أنهم اجتهدوا في خلق صيغ مختلفة في الصلاة النبي صلى الله عليه وسلم وألفوا فيها كتبا وقصائد وأورادا مخصوصة وبعدد معين حتى ترسخ في النفس محبة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد جاء في الأثر أن الصلاة هي مفتاح الوصول وهي الواسطة والكافية عن كل ذكر « فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي ؟ فَقَالَ : مَا شِئْتَ . قَالَ قُلْتُ الرُبُعَ ؟ قَالَ : مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ . قُلْتُ النِّصْفَ ؟ قَالَ : مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ . قَالَ قُلْتُ فَالثُّلُثَيْنِ ؟ قَالَ : مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ . قُلْتُ أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا ؟ قَالَ : إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ » [33]، وهذا الذي كان يربي عليه الشيخ مريديه ويأمرهم بالمداومة على هذا الذكر مع التعظيم لقدر هذا النبي الكريم يقول الشيخ :

صلوا على من زاد يتيم هو الدرة اليتيمة
هذاك محل التعظيم الهاشمي بو فاطمة
صل وسلم يا صاح على النبي وزيد وزيد
قليل في حق الماحي إذا بغيت تموت شهيد
صل وسلم يا رب على النبي حتى يرضى [34]

والوصف بالدرة اليتيمة لخصوصية هذا النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي انفرد في شرفه وعظم قدره عند ربه وكبر جاهه، فقد اصطفاه الله سبحانه وتعالى عن خلقه وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وصاحب اللواء والمقام المحمود الذي لا يبلغه أحد من الأولين والآخرين ولا حتى من المقربين، فالصلاة عليه هي زيادة قرب واشتغال بمحبته فقد بلغ من الكمال واجتمع عنده من الفضائل ما يوجب محبته وذكره في كل مجلس يقول الشيخ :

محمد سيّد لسياد هو الشفيع فينا
صلوا على سيد لسياد محمد الهادي نبينا [35]

وإذا تتبعنا مـا خلفه التراث الإسـلامي في ذكر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته ووضع القصائد في وصف خـلُقه وخَـلقه وجدنا للمتصوفة ولعا كبيرا في تعظيمه ومحبته، وتربية أبنائهم عـلى ذلك وجعل روابط ورمـوز لها علاقة بالنبي صلى الله عليه وسـلم أصبحت مـن الأعـراف والتقاليد فعـلا وقـولا حتى أثناء التحية يذكر فيه الصـلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يقـول الشيخ في ذلك :

راك الروح فالجنة أنت وريت علامك يرعاني
بدليلها في سـورة ق يا اللـي مـا تعذرني
صلوا على سراج الدين رسول مولانا سماه
محمد الهـادي الأمين شفيعنا فـالقيامة [36]

وقد وضع تلاميذ الشيخ صيغا سماعية من الصلوات على شكل أوراد وقصائد وسموها باسمها واعتبروها بحورا للقصيدة :

صلوا على المختار سيدي يا حنيني النبي القريشي إمام كل الأبرار [37]
صلـوا على طيب الذكر من جاب ليمان لينا
شفيع لمـام الكـــل الهـاشمي يا نبينا [38]

ولأن ذكره عليه الصلاة والسلام يعطر المجالس وتنكشف الحقائق فكلما كثر ذكره زاد الشوق إليه وتعلقت النفوس بأدق التفاصيل وما خفي عنها، فقد ذكر الله سبحانه بأعلى وصف قال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[39]، وهذا الوصف يجعل المؤمن يزيد مدحا فيه وتعلقا به، ولذلك نجد المتصوفة أكثر المذاهب الإسلامية تعظيما يقول الشيخ :

صلـوا عـلى النبي مـا دامت الدنيا أيا العاشقين في صـلاة محمد
لـولا النبي مـا دامت الدنيا لا شمس لا قمر لا بحـور لا ويدان
الشمس والقمر خالقين من نور والنجوم في السما فارحين بالعدنان
الصـلاة والسـلام عـلى رسـول الله محبوب خـاطري مـولاي محمد [40]

والتعـلق بالنبي عليه الصـلاة والسـلام لا يحصـل إلا بمـداومة الذكر والـصلاة عليه وبصيغ مختلفة تحاكي حال الذاكر والمقام الـذي بلغه في المحبة والشـوق إليه، حتى يصبح هذا المحبوب سر الوجود ولهذا نجد الشيخ يذكر حقيقته عليه الصلاة والسلام وأن كل ما هو مشخص ومدرك في الظاهر لا

وجود له، والحقيقة الـواحدة والمطلقة هي الذات العلية عزّ وجل تتجلى في مخلوقـاته وسـر هـذه المخلوقات روح النبي صلى الله عيه وسلم.

الخاتمة

هذه بعض العناصر البنيوية التي ساهمت في تشكيل النص عند الشيخ أحمد بن موسى السـاوري من خلال الشعر الملحون الـذي يعد جزءا مهـما في البنية الثقـافة بمنطقة الساورة، والـذي يعتبر وسيلة شفوية فعـالة في التربية والتعليم والتزكية، وكـذلك وسيلة لنقل التجربة الحسية والروحية التي تعد مرجعـا أساسيا للمريد الناصح وما احتوته هذه القـصائد من حكـم ومـواعظ والأثر البالغ في بعدها التربوي حيث أصبحت الزاوية منارا للدعوة وتبليغ تعاليم الدين الإسلامي.

ولخصوصية هذه المنطقة رأينا كيف استطاع الشيخ أن يخلق آلية فعّالة في احتواء سكان المنطقة وكيف ترجم النص الديني " الكتاب والسنة " إلى هامش للنص حي وجلي متجسد في شخصية المربي الذي يحاول دائما خلق جسر تواصل بين المعرفة والسلوك وربط ثقافة المجتمع بالتوحيد .

هوامش

[1] سورة الفرقان، الآية 43

[2] سورة الأنبياء، الآية 53

[3] – أبو الوفا الغنمي التفتازاني، مدخل في التصوف الإسلامي، دار الثقافة، القاهرة، 1979م، ط3 ،ص 3.

[4] – هادي نهر لعيبي، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، عالم الكتب الحديث، اربد – الأردن، 2006 م، ص 105 .

[5] – عبد السلام مسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، المطبعة العربية، تونس، ط 1986، ص 75.

[6] – نعمان بوقرة، لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، دار الكتب العلمية، ص 172 .

[7] – محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية ص55

[8] – أحمد بن يحي البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، حققه سهيل زكار – رياض زركلي، دار الفكر ط 1 ، بيروت – لبنان، 1996 م، ص 356 .

[9] جيرار جينيت، مدخل إلى جامع النص، ترجمة : عبد الرحمن أيوب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 3 2001 م، ص 127 .

[10] – جميل حمداوي، شعرية النص الموازي (عتبات النص الأدبي)، شبكة الألوكة، ط 2، 2016 م، ص 140.

[11] – جيرار جينيت، مدخل إلى جامع النص، ص 131 .

[12] – المرجع نفسه، ص 131.

[13] – سورة الفرقان، الآية 38 .

[14] – أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2001 م، (ح ر) 16049 .

[15] – سورة النجم، الآية 03 .

[16] – أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، إخراج وتصحيح : محب الدين الخطيب دار المعرفة، بيروت، 1379 هـ، (ر ح) 6427 .

[17] – ينظر، عبد المنعم الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط2 ،1982 ص 248 .

[18] – سفيان زداقة، الحقيقة والسراب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1 ،2008 ،ص 97 .

[19] – آمنة بعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج المعاصرة، دار الأمل للطباعة والنشر، تزي وزو، الجزائر، ط3، 2009، ص59 .

[20] – سورة القلم، الآية 4 .

[21] – سورة الأحزاب، الآية 41 .

[22] – سورة الأنعام، الآية 191 .

[23] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، ص 47..

[24] – سورة الأنعام، الآية 122 .

[25] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، ص 47 .

[26] – سورة أل عمران، الآية 31 .

[27] – سورة البقرة، الآية 165 .

[28] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، ص 68 .

[29] – سورة القصص، الآية 56 .

[30] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، صر 69 .

[31] – المرجع نفسه، ص 68 .

[32] – سورة الأحزاب، الآية 56 .

[33] – قال الترمذي : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وحسنه المنذري في (الترغيب والترهيب)، وكذا حسنه الحافظ في "الفتح" (168/11)، وأشار البيهقي في "الشعب" (215/2) إلى تقويته، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (1670) وغيره.

[34] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، ص 79 .

[35] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، ص 75 .

[36] – المرجع نفسه، ص 77 .

[37] – المرجع نفسه، ص 76 .

[38] – المرجع نفسه، ص 76 .

[39] – سورة القلم ، الآية 4 .

[40] – طلول عبد الحكيم، سيدي أحمد بن موسى الكرزازي حياته وآثاره، ص 76.